النقد

١ ـ تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض ما أخذ تاريخه

لأستاذ كبير

الدكتور حسن ابراهيم حسن من الشبان المصريين الذين يحملون فى مادة التاريخ الاسلامى طائفة غير قليلة من الألقاب العلمية الضخمة ما بين مصرية وأجنبية ، ثم هو قد زاول تدريس التاريخ الاسلامى فى الجامعتين المصرية والأزهرية سنين طوالاً أخرج فيها من الآثار المؤلفة والمترجمة شيئاً كثيراً ؛ وقد طلع على الناس فى هذه الأيام بسفر ضخم فى تاريخ الاسلام السياسى تناول الكلام فيه على عصر الجاهلية ، وعصر النبوة ، وعصر الخلفاء الأربعة ، وعصر بنى أمية

تلقاء هذه الألقاب الضخمة ، والخبرة الواسعة ؛ وتلقاء جلال العصر الاسلامى القديم ، استشرفت نفسى لمطالعة كتاب الدكتور الأخير منذ علمت بظهوره ؛ ولم أكد أصل إلى نسخة منه حتى عكفت على قراءته ؛ وقد قرأته من أوله إلى آخره . وإنى مع اعترافى بالجهود الكبير الذى أنفقه الدكتور فى كتابه ، قد تبين لى فى الكتاب من السقط والزلل مالايحسن السكوت عليه ، لذلك عمدت إلى نشر ما تيسر لى نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة فى معاهدنا العلمية ، هى مادة التاريخ الاسلامى ، واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره فى مادة هو متخصص فيها ، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية فى الأقطار الشرقية أن يتطرق اليه ضعف أو وهن . وإنى قاصر كلمتى اليوم على إيراد شىء من مآخذ الكتاب التاريخية تاركاً بقية المآخذ لكلمات أخرى أنشرها تباعاً على صفحات « الرسالة » الغراء

* * *

يطلق المؤلف فى ص ٣٤ كلمة « أقيال » على ملوك العرب وساداتهم ، مع أن هذا اللقب خاص بملوك اليمن أو من دونهم من أمراء المخاليف اليمنية

يقول المؤلف فى ص ٣٦ : « وكان للعرب نظام ثابت للزواج : فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة » ولو قصر المؤلف هذه الحال على الحجاز لاستقام قوله ؛ أما وهو يعمم الحكم فكلامه لايطابق الواقع ؛ والدليل على ذلك حديث البخارى المنسوب إلى عائشة ، والذى يبين الأنحاء الأربعة للأنكحة فى الجاهلية (البخارى جـ٧ ص ١٥)

يذكر المؤلف فى ص ٤٥ أخذاً بظاهر الرواية العربية ، أن الفرس كانوا زاهدين فى ملك اليمن ؛ والصحيح الثابت أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش فى تلك البلاد

يقول المؤلف فى ص ٤٥ فى وصف وهرز قائد الحملة الفارسية على اليمن : « ويصفه المؤرخون ـ ومنهم المستشرق نولدكه ـ بأنه قد بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر » والوارد فى الروايات أن حاجبيه هما اللذان كانا قد سقطا على عينيه لكبره فكان يعصب له حاجباه ليحسن الابصار (الطبرى جـ ٢ ص ١١٩)

يقول فى ص ٥٨ « ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية » ، ولو استبدل « بادية الشام » بسورية لاستقام قوله

يقول المؤلف فى ص ٦١ — ٦٢ « وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى Patriarchal State الذى كان مألوفاً لدى العرب فى جاهليتهم ، وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة

(كورسيكا) » واستعمال لفظ أجنبي لنظام عربي لا محل له هنا كما أن التنظير بين بلاد العرب وبين قورشقة خاصة يبدو غريباً ونابياً في هذا المقام

يزعم المؤلف في ص ٦٣ أن الحجاز « ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدوني التي صده العرب حين أغار على ملك الفرس » فمتى ، وأين ، وكيف صد العرب الاسكندر المقدوني يا دكتور ؟ لاشك أنك إن فصلت ما أجملت في عبارتك تكشف عن ناحية خطيرة مجهولة من تاريخ الفاتح المقدوني الكبير

يقول المؤلف في ص ٦٨ في سياق كلامه على قريش « واتخذوا جزءا من الأرض المجاورة أولوه احترامهم ، واعتبروه مقدسا ، وبنوا به بيتاً حراماً لايحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته » وهذا كلام يضر قائله ولا ينفعه ، وإني أنصح للدكتور أن يبادر الى التبرؤ منه وإلقاء تبعته على قائله الأصلي . فالدكتور لا شك يعرف أن إبراهيم الخليل هو الباني للكعبة ، وأن قريشاً كانت تحتمي بالبيت والحرم ، بدلا من أن تحميهما ، بدليل قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » (سورة العنكبوت)

يقول المؤلف في ص ٨٧ في صدد الكلام على الحنيفية ببلاد العرب : « ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون » وهنا أيضاً أنصح للمؤلف أن يبرأ من هذا القول فليس معنى التحنف « التوبة والاعتراف »

ويقول في ص ٩٧ بعد أن يورد أسماء السابقين الأولين الى الاسلام : « وقد سموا السابقين الأولين كما سمى من أسلم بعدهم بالمستضعفين » وظاهر أن ليس التأخر في الاسلام هو السبب في وصف المستضعفين بالاستضعاف إنما السبب في ذلك أمر آخر يعرفه من يقرأ الجزء الأول من سيرة ابن هشام بشيء من الروية والتفكير

ويقول في ص ١٢٩ ـ ١٣٠ : « ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه. ويحثهم على الخضوع والاذعان لارادة الله ، ومن ثم سمى هذا الدين بالاسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لارادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله » وعلى فرض صحة هذا القول ماذا كان يسمى الاسلام والمسلمون قبل بناء المسجد وطوال العصر المكي ؟

ويقول في ص ١٣١ : « وأحل (الاسلام) الدعوة الدينية محل الوحدة القومية » ثم يقول بعد : « وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية » والظاهر أن المؤلف ينقل هنا عن أصل أجنبي ، وأن المراد بالوحدة القومية والجنس هنا انما هو « القبيلة »

ويقول في ص ١٣٤ : « فقد تزوج (الرسول) ... صفية بنت حُيَيّ سيد بني النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك » وهذا الكلام إن دل على شيء فانما يدل على قلة الاطلاع الصحيح وعلى سذاجة التفكير وإلا فهل كان الرسول لا يزال يطمع في إسلام اليهود بعد الذي جرى بينه وبينهم من الأحداث الجسام بالمدينة وخيبر ؟ ثم متى كان التأثر البريء بالجمال دليلاً على ذبول النفس وعدم سموها ؟

ويقول المؤلف في صفحة ١٥٤ : « سرية بني الرجيع » ويعيد ذلك القول في هامش صفحة ١٧٤ ظنا منه أن هناك قبيلة تسمى (بني الرجيع) والواقع أنه انما يريد « بني لحيان » الذين كان لهم ماء يسمى (الرجيع) وقعت عنده الحادثة المعروفة في كتب السيرة

ويقول في صفحة ١٧٠ : « وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم (اليهود) كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها » ولو عكس المعنى فقال : « كانت أحزم وأشد » لكان كلامه منطبقا على الواقع من غير نزاع

ويقول في صفحة ١٨٣ في صدد الكلام على غزوة الطائف : « وأقام الرسول على حصارهم (ثقيف) حتى إذا دنا شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم فك الحصار عنهم ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم » ومع أن الأشهر الحرم لا تمنع من مباشرة القتال في الاسلام فان الرسول لما رأى أن الحرب طالت بينه وبين ثقيف علم أنه لم يؤذن له فيها وأسر ذلك الى أبي بكر وعمر ثم ارتحل عن الطائف تاركا أمر اسلامها للزمن . وقد صحت فراسته فقد جاءه وفد ثقيف باسلامها في رمضان سنة ٩ هـ

ويسمي المؤلف في صفحة ٢١١ نابليون بـ « الفتى الطلياني » وذلك تعبير لا يليق صدوره ممن يتخصص في التاريخ

في صفحة ٢٤٠ـ٢٤١ يزعم المؤلف أن القصيدة التي مطلعها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

قالها قائلها فى رثاء عمه ، والصحيح الثابت من سياق القصيدة نفسها أنها قيلت فى رثاء خال الناظم لا عمه وذلك بدليل قول الشاعر :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل

والظاهر أن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزى على القصيدة عن تفهمها وتبين من قيلت فيه

ويقول فى صفحة ٢٤٧ فى كلامه على أبى بكر الصديق : « وكى يأبى بكر لمبادرته الى الاسلام » ولست أدرى ما الذى أبقاه المؤلف بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعصبى المستشرقين ؟

ويقول فى ص ٢٧٨ : « لقد رحب الفرس بالعرب حبا فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ورغبة فى معاقلتهم من الخدمة العسكرية ثانياً . . » وهو كلام بعيد عن الواقع بعد السماء عن الأرض

يظهر المؤلف فى هامش ص ٢٩٥ ضجره من اضطراب تاريخ فتح العرب الشام ويقول « وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا » فهل ترى يا دكتور أن من شأنك أن تنقل شرح التبريزى على قصيدة تأبط شرا ، وأن ليس من شأنك أن ترتب وقائع فتح العرب للشام ؟

ويقول فى ص ٣١٠ عند كلامه على فتح عمرو الاسكندرية : « وهزم الروم براً وبحراً » وقد أخطأ هنا من وجهين . فان عمرا أو غيره من العرب لم يهزم الروم براً وبحراً عند الاسكندرية ، وإنما استولى عليها بمعاهدة بابليون التى تمت بينه وبين المقوقس (أنظر كتاب فتح العرب مصر لبطلر) ثم كيف استطاع عمرو أن يهزم الروم بحراً ؟ هل كان معه أسطول يا ترى ؟

يزعم المؤلف فى صفحة ٣١٤ أن المؤرخين لم يجزموا برأى فى أمر حريق مكتبة الاسكندرية . والصحيح أنهم فعلوا . فقد جزم بطلر بأن العرب لم يحرقوها ، وجزم جورجى زيدان فى تاريخه بأنهم أحرقوها

يقول فى ص ٣٣٠ ضمن كلامه على عثمان بن عفان : « وكان يصوم الدهر » ، والعقل الناقد يرفض هذا القول وإن كان وارداً فى كتاب قديم . هذا فوق ماورد فى الأثر من النهى عن صوم الدهر

يقول فى ص ٣٤١ أن عثمان ترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون ، وتلك دعوى لا يقوم على صحتها دليل

يقول فى ص ٣٥٣ أن قتلة عثمان ضربوا عنقه وأن بعضهم قطع بالسيف أصبع نائلة زوج عثمان ، والخليفة المظلوم قتل دون أن يضرب عنقه ، وأن أصابع يد نائلة أطنت بالسيف لا أصبع واحدة

يقول فى ص ٣٦٥ : « ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر » وعمر لم يسن قانوناً للشورى وإنما عين ستة نفر يختار المسلمون من بينهم خليفتهم

فى ص ٣٩٨ يتابع المؤلف المستشرق الانجليزى نيكلسن فى قوله فى انتصار معاوية فى أمر الخلافة : « اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء » والأمر هنا ليس أمر وثنية وإسلام إنما هو أمر أحزاب سياسية تتنافس فى الحكم وفاز بعضها فى النهاية

وهو يتابع فى ص ٤٢٥ السيد أمير على فى قوله فى وقعة الحرة « ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع الى اصطبل لخيولهم وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع » وهذا كله غير ثابت

يقول فى ص ٥٠٧ عند كلامه على المرجئة : « وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب هذا المذهب المشهور الذى لا يزال باقياً الى اليوم » واتهام الامام الأعظم بالارجاء أمر قديم وقد كفانا مؤنة تفنيده السلطان أبو المظفر عيسى الأيوبى فى رده على الخطيب البغدادى

(يتبع) مؤرخ